

في ثقافة البدو - الفلاحين

وتشكل اللهجتان عائلة لغوية واحدة، تعكس وحدة التكوين الاجتماعي التاريخي، الظاهر، حتى منتصف القرن العشرين، في تراث الإنتاج البدوي - الفلاحي، وعادات الغذاء والضيافة التي درسها

مؤلف ضخم للزميل ناهض حتر (بمشاركة أحمد أبو خليل وفريق من الباحثين)، ويصدر في بيروت قريباً تحت عنوان: «المعزب رباح». ننشر هنا مقدمة الكتاب للزميل حتر.



المجتمع الأردني الحديث تأسس اعتباراً من منتصف القرن التاسع عشر (أرشيف)

بالقول: «سما بالرحمن على واجبك»، وللمعزب إزاء الآخرين ما يسمى «حق الملحة»، أي الاعتراف المعنوي بالحماية الشاملة التي يسبغها المعزب على ضيفه، فلا يُهان الأخير ولا يُطلب ولا يُؤذى، ما دام في ضيافة المعزب. ومالح يمالح. رغم أنها تشير، في الأصل، إلى الحليب، وهو من معاني الملح. هو من أكل لقمة أو شرب لبناً أو ماءً في بيت، فيملك، عندها، حق الحماية من قبل صاحب البيت. ولا ينتهي هذا الحق إلا حينما يمالح الضيف، بيتاً آخر. لكن البيوت لا تتبارى في الضيافة. فالمناصاة في الكرم مذمومة، لأنها تمس مبدأ المساواة. والمؤاكلة إعلان للأخوة. ولذلك، لا يؤاكل الرجل زوجته، فهي تصبح، بذلك، اختاً له لا تحل له زوجة. وليس ذلك من قبيل التمييز ضد المرأة، فالرجل يؤاكل أخته، ولكنه بدل على عقيدة عميقة في أخوة المشاركة في الأكل. وأسوأ ما يفعله المعزب، بالمقابل، هو إكرام بعض الضيوف وإهمال بعضهم. يقول الشاعر:

أول السبغ التلوف عزلك ضيوف عن ضيوف والسبع التلوف هي العادات السيئة المتلفة للكرامة الإنسانية. المعزب لا ياكل، بل يخدم. وقبل ذلك وبعده، هو ملزمٌ بالأدب المرافق للضيافة، فبحدت الضيف بما تميل إليه نفسه، ولا يشكو الزمن في حضرته، ولا الفقر ولا المرض، ولا ينغس ولا يتنأب أو يغضب لشأن من الشؤون. إلا أن على الضيف واجبات أيضاً. فلا يستغل قانون الضيافة، لكي يُلحز، أي يقيم رغماً عن رغبة المعزب، فيصبح (مُلجراً وملحزة). ولذلك، يقال: «ضحكة السن بتجيب الضيف المخم». واجلب الضيوف للشتر، زيارة المرأة الحائض للمرأة النفساء قبل الأربعين. وتسمى هذه

كل مناحي الحياة للمجتمع نصف البدوي. نصف الفلاحي يمكن تكثيفها في ميثولوجيا الضيافة

الزيارة «كبسة». ولا يستطيع الضيف، رفض تناول الطعام حين يقال له: «فلح». ذلك أن الفلاح لا يُلطم. ومن المعيب على الضيف، والأكلين معه. أن يمس رأس الذبيحة. فيُطلب عندها للحق. أو أن يستخدم يده اليسار، أو أن يمد يده إلى اللحم في أعلى المنسف أو اللحم عند جاره. لكن الرجل الكريم الذي يقطع اللحم من أمامه، يدفنه تحت الجريش ليجد الأكل اللاحق شيئاً يأكله، أو يعطيه للذي وراءه ممن ينتظرون الطورة التالية على المنسف. ولذا يُقال: «أقعد وراه وانشد خاله». فمن كان خاله ردياً لا يتذكر صحبه ممن ينتظرون في الطورة التالية. وثلاثاً شخصية الرجل، عند الأمانة والعرب بعامته، تعود، سلباً أو إيجاباً، للحال. ويؤكل المنسف باليد بأصابع ثلاثة، وفي وضع انتصاب القامة، ومن دون لش (كثرة الأكل). وذلك، حفاظاً على كرامة المنسف الذي يتمتع بمعنى ميثولوجي مضمّر، وكذلك حفاظاً على جودته ونظافته وكثرته، حيث يؤكل المنسف على طورات متتالية من الأكلين.

وعلى الضيف ألا تصيب أصابعه في الغموس، الآدام، ولا تغمس اللقمة كلها في الآدام، بل طرفها فقط. ولذلك، يقول قانون الضيافة إن نقص الخبز عار على المعزب، بينما نقص الغماس عار على الضيف. ومن معابيب الضيوف والأكلين، اللهمطة (السرعة وعدم التركيز) والفغم (للخضار محدثاً صوتاً ومشهداً منفراً) واللغ (اللب بسرعة ولهوجة) والفنش (التغميس بلا أدب) والشوطة (التعجل على الأكل الحار) والنفخ في الحليب واللش (كثرة الأكل). ومسح اليد بطرف الصحن، وإعادة اللقمة أو بعضها بعد أخذها.

ومن حقوق الضيف، المنبث، إلا إذا كان رجل البيت غائباً. فللضيف على المرأة حقوق الإكرام

والطعام، القهوة والذبيحة والمنسف، دون حق المبيت. وفي قراءة للتراث الشفوي، نلمس الاحتجاج على الملقحين (لنح: قدم طعاماً كثيراً)، فيقول الشاعر:

القفو! كيف القمح ما يقري الضيف التمر من فوقيه سمن الأشاوي؟ والقمح كناية عن الخبز وقد صنع منه المعزب فتيتاً ووضع فوقه تمراً وسمناً.

ويفتح هذا الاحتجاج الباب أمامنا لكي نقرأ بعض ملاحم التفاوت الاجتماعي والرمد عليه بالصبر والزهد. يقول الشاعر:

كوني صبورة على اللبا يا أم غانم أو لا تحسبي كل الزمان إبحوث فينا من ينام على جرد على الوطا أو فينا من ينام فوق إبحوث فينا من يشرب حليب ورايت أو فينا ما يروى لبن مَحوث

وفينا من يعيش بالرغد والهنأ أو فينا من يعيش كوت بكوث وسنلاحظ أن الرغد، عند الأمانة، يتمثل في النوم على سرير وشرب اللبن الرايب، بينما الفقير هو من ينام على الوطا ويشرب اللبن المحكوث، أي المنزوع الدسم، بعد خضه واستخراج الزبد منه لصنع السمن وبيعه.

ويدفع الفقر إلى الزهد، فيقول الشاعر:

أشرف المأكول العيش وإن كان يابس بله وأحسن الملبوس الخيش لو يش هذا كله؟

أوجد المجتمع التقليدي، حلولاً مقبولة فعالة لمساعدة الفقراء بشرف في إطار سياق إنتاجي، من خلال منظومة الهبة المسترجعة، وهي، في الحال، على نموذجين: العدولة (جمعها: عدائل). وهي النشأة أو عدد من الشياه تؤدع لدى فقير مؤتمن فيستفيد من لبنها وسمنها وصوفها أو شعرها ومواليدها من الذكور، بينما يضم الإناث منها إلى العدولة الأصلية التي تظل ملكاً لصاحبها الواهب. ثم، هناك، المنوحة (وجمعها: منايح). وهي شاة أو ناقة يسمح صاحبها لمحتاج بان يرعاها ويستفيد من لبنها.

ومن عادات مساعدة الفقراء، الجورعة. وهي ترك قسم من الزروع بلا حصاد للمحتاجين، بحصدونها ويدرسونها ويطحنونها لخبزهم.

وفي أشهر الربيع، تعتمد العائلات اعتماداً كبيراً على ما تمنحه لها الطبيعة من نباتات، أصبح تمييزها وإعدادها فناً متوارثاً. وبعضها يؤكل نيئاً، أو تعد منه السلطات أو يُمزج باللبن المقطوع، لكن معظمها يُحاس بالزيت أو السمن مع البصل، كالفطر والكمأ والعكوب والخبيزة. ومن الطبيعية، أيضاً، يحصل البدو - الفلاحون على غذاء إضافي، وأحياناً أساسي، يتمثل في الطرائد من غزلان وأرانب، والطيور كالشنبر والحباري والقطن والحمام البري والدرج الخ. ويأكل الصيادون لحوم طرائدهم شيئاً أو تحاس لحومها في البيت مع السمن والبصل.

وقد كان الصيد في المجتمع التقليدي، رؤوفاً بالبيئة، ولا يؤدي إلى انقراض الأنواع، لسببين أولهما أنه يتم غالباً للحاجة لا للتسلية، وثانيهما أن وسائله لم تكن فتاكة كما هي الحال اليوم مع البنادق الحديثة ونزعة الكسب. وأختم بدالات النار وقهوة البن في تقاليد الضيافة. فالنار تُشب إعلاناً من المعزب المستعد لاستقبال الضيوف. وهي عنوان عن. ولذلك، قيل في الذم «يا طافي الضو، يا مَبت النار»، والنار ترتبط بقهوة البن التي يتعاطها الرجال في مجالسهم معني ومتعة. ففي المعنى هناك إجابة الطلب وتقدير المقامات، وفي المتعة، لذة مذاق واعتدال المزاج.

انتهى من هذه المقدمة مع رائحة البن والهيل على أنغام الربابة: يا عاملين البن وسط الترامبيش لا تقطعون من حشا مرضعائته رذوه لآفات الخشوم المقابيش صفر الدلال اللي عليها حالته وحلاته، هنا، روعته. فتحلية القهوة العربية لا تجوز حكماً، بينما يمنحها الهيل مذاقاً حامضاً وحلوياً معاً.

سليمان بن داهود، ذبيحة دانيال، ذبيحة الحلبة، ذبيحة النذر. الموت: ذبيحة القبر، لدى دفن الميت. الفرس: ذبيحة الفرس، عند شرائها. الضيف: ذبيحة الضيف.

فللذبيحة، إذناً، بعد ميثولوجي صريح أو مضمّر. ومن ملاحم هذا البعد، أن رأس الذبيحة يوضع على المنسف في وضع إعلان الفرح أو الحزن، فيكون في الأعلى مرفوعاً في الأفراح، ومعكوفاً هابطاً في الأتراح. وفي تقصينا للعادات الإيمانية الشعبية، وجدنا أن الذبيحة تحتل الموقع المركزي فيها، قبل الصلاة والضياف.

وبما أن مناسبات الذبائح موسمية أو مرتبطة بأحداث محدودة التكرار، فإن ذبيحة الضيف هي الأكثر احتمالاً وتكراراً، ولا ترتبط بموسم ولا بحدث، الضيافة، هنا، هي المناسبة والحدث. وهي تأتي كجائزة للمعزبين الذين بقيامهم بواجب الضيافة، يربحون مناسبة أخرى للذبيحة وتناول اللحوم.

إلا أن هنالك من يتهرب من قانون الضيافة المطلق، فيسقط أخلاقياً واجتماعياً، ويسمى «عدوماً» من عدم، فكانه غير موجود. ويغدو مضرِباً للمثل السيئ الذي يتحاشاه الرجل الغانم:

ما هو اللي للمزّه يقول حيدور لا تذكريني لن كان طارش لغانا

أي ليس ذلك الذي يقول لزوجته أنكري وجودي إذا جاءنا ضيف عابر. ولقى: حل ضيفا، والملقى المنزل والإقامة. وبينهما، كما هو واضح، رابط يتعلق بالضيافة. فالمنزل للضيوف.

وللضيوف حقوق أساسية، معنوية ومادية، حتى لو كانوا على خصومة أو عداوة مع المعزب. ومن حقوق الضيوف: التهلي والترحيب، وربط الخيل، وتقديم العلف لها، وبسط الفراش، وتقديم القهوة، وتقديم الطعام، والإكرام، والمساواة بين الضيوف في الإعزاز، وتلبية الطلب، وقبول الاستجارة والدخالة والطنابة.

الضيف، عند الأمانة، أمير إذا أقبل، له إكرام الأمير، وأسير إذا جلس، فهو ملزم بالأدب والحشمة والتمثل بالعادات والقيم المرعية في المجلس والكلام والطعام، وشاعر إذا رحل، يلهج بمديح المعزبين لما لاقاه من حفاوة.

يقدم المعزب، القهوة للضيف حالما يحل، ثم الطعام بغض النظر عن ساعة حضوره، ويكون من حواضر البيت، على أن يذبح له ويولم ويدعو الأهل والجيران لمشاركة الضيف، طعام المنسف. وحين يدعو المعزب الضيف للأكل، يلزمه الأدب، الاعتذار عن التقصير، فيقول: «اعذرنا من القصور»!

يقدم الضيف على سواه، ومعه كبار السن والقدر، ولا يبدؤون الأكل، حتى يسمح المعزب

الزوجية هو بيت الزوجة، وأن زوجها مركز في جنباته كضيف، وله، إضافة إلى حقوق الزوج، حقوق الضيف أيضاً؛ لكن المرأة التي ترافق الرعاة أو الحراثين، في العزب، لتطهو طعامهم، تدعى عزبئة وجمعها عزبيات.

ولكن، لم يكن المعزب، المضيف، رابحاً، بل رباحاً؛ إنه، كذلك، لأنه، أولاً، يستجيب للواجب المطلق، يربح الضيف ويربح كرامته الإنسانية في مجتمع يلتزم على الضيافة. ثم إنه يربح، ثانياً، التكريم المعنوي، وثالثاً، التكريم الفعلي حين ينقلب بدوره إلى ضيف، ليس على أمل السداد، ولكن في سياق مطلق أيضاً.

على مستوى عملي، يربح المعزب، إطعام أهل بيته وعزوته وجيرته. فالضيافة هي إحدى المناسبات المحدودة التي تُدبج فيها الخراف في اقتصاد إنتاجي يتعامل مع الحلال كوسيلة لإنتاج الحليب ومشتقاته من جميد وسمن (وأيضاً الصوف والشعر) وكسلعة نقدية، لا كموضوع استهلاك. الأمانة ليسوا أكل لحم، ومائدتهم تقوم على الحليب والقمح. ولذلك، فإن ذبيحة الضيف، تعد مغمناً للمعزبين ومن حولهم بوصفها احتفالاً باكل اللحم.

وفي تقصينا للعادات الإيمانية الشعبية في شرق الأردن، وجدنا أن الذبيحة كانت أهم من الصلاة للتعبير عن البعد الإيماني من التقرب لله وأنبيائه وأوليائه، ودرء الشرور والمصائب، واستنزال الرحمة.

وترتبط الذبائح، عند الأمانة، بمناسبات محددة، توضح أغراضها الميثولوجية بصراحة. وقد حصر العلامة روكس بن زائد العزبيزي، الذي تدين له هذه المقدمة بالكثير، مناسبات الذبائح في شرق الأردن، كالآتي:

في المسكن: ذبيحة العقد. ولاحقاً، ذبيحة الباطون، ذبيحة الصبّة (لدى صبة سقف البيت)، ذبيحة البيت = ذبيحة الدار = ذبيحة العتبة. لدى السكن في منزل جديد، ذبيحة الجيرة للجار الجديد.

في الزراعة: ذبيحة الحصيد، ذبيحة البيدر، ذبيحة الجورعة - عند نهاية الحصيد تترك بواقي من الزرع للفقراء، وتُدبج لهم ذبيحة، ذبيحة الطاحونة.

في العرس: ذبيحة الجاهة، ذبيحة الفاردة، ذبيحة القرى. للدخلة، ذبيحة الزّوارة. لدى زيارة العروس لأهلها.

الميلاد والأولاد: ذبيحة الولد، ذكراً أو أنثى. وتسمى عقيقة، ذبيحة الطهور عند المسلمين وذبيحة العمد عند المسيحيين.

الغنم والحليب: ذبيحة الغنم. القرينية، ذبيحة السعن أو السقا.

المعاملات: ذبيحة الشراكة، ذبيحة الصفاح، ذبيحة الكسب.

الدين والمعتقدات: ذبيحة الضحية (عيد الأضحى)، ذبيحة سمط الخضر، ذبيحة